### ملاحظات عامة على هامش الدورة العاشرة لمهرجان السينما الافريقية بخريبكة:

# غنى في مادة الافلام التعبيرية وفقر في خطاب الصورة

د. عز الدين الوافي*

■ نقترح من خلال هذه القراءة التركيبية الوقوف عند أهم الملامح التي استرعت اهتمامنا لبعض الأفلام المشاركة في الدورة 10 لمهرجان خريبكة، حيث بات من المؤكد أن السينما تمسي مهما كان انتماؤها أو موقعها، في حاجة ماسة لشروط الصناعة التي هي من صميم النمو الاقتصادي والسياسي لأي بلد ما.

1

لا يمكن تصور أي اشعاع سينمائي، وبالتالي رواج فني وتجاري مرتبط بهذا المجال، من دون أن توجد جهات داعمة ومحتضنة أكانت الدولة أو المؤسسات المعنية بالقطاع السمعي البصري، الشيء الذي يجعل المشروع الثقافي للقارة الافريقية برمته مرهونا بمجموعة من الاعتبارات التي يأتي في مقدمتها الاستقرار السياسي والاجتماعي.

بالرغم من الدعوات والتوصيات المتكررة من هذه الجهة أو تلك حول بعض العوامل الأساسية: كالعمق التاريخي المشترك والذاكرة التراثية، ثم الغنى الاثني والثقافي واللغوي الذي يمكن للسينما أن تشتغل عليها وتجعل منها جبهة موحدة، نلاحظ أن العاملين السياسي والاقتصادي يجمدان كل رغبة في التوحيد والتماسك بين شعوب هذه القارة، مما يجعلهما يلقيان بظلال غامقة على حركية الانتاج والتوزيع والتعريف بالفيلم الإفريقي لأسباب قد تكون أيديولوجية أو مالية محضة.

2

ننطلق من هذه المعطيات لنؤكد على حقيقة مفادها أن السينما الإفريقية اليوم أصبحت مشروطة بمقومات الدولة وبمدى وعيها بالمشروع الثقافي الذي عليها أن تتبناه وتدافع عنه.بل الأمر من ذلك، أن السينما ذاتها بأفلامها المنتمية لبلدان افريقية كالكوت دي فوار، والبنين، والسينغال، وبوركينا فاسو وأنغولا وجدت نفسها وسط معمعة الانشغال بقضايا فرضت نفسها على مسرح الأحداث من كوارث طبيعية كالجفاف والمجاعة وصحية كفقدان المناعة، وانسانية كالحروب والتناحر الاثني الذي يخلف ضحايا لم يسلم منه لا النساء ولا الأطفال. ولعل جل الأفلام صورت بصدق الوضعية المأساوية التي تعيشها الطبقات المسحوقة، بينما مالت أفلام أخرى لتقريب المشاهد من الحياة المزدوجة التي يمكن أن يعيشها المهاجرون الأفارقة ـ الى فرنسا تحديدا ـ نتيجة أزمات الهوية وضغط التقاليد.

في غياب شبه تام لسياسة ثقافية وسينمائية قارة ومتينة في محاربة الفقر والفساد الاداري والتفكك الأسري، كشفت بعض الأفلام كفيلم «آه أيها البطل» من أنغولا/البرتغال عن كثرة الأطفال المتخلى عنهم والذين لا أب لهم لأن الرجال ماتوا في الجبهة، أو لأن أمهاتهم بتن يتعاطين الدعارة لضمان قوت يومهن. كما أشار هذا الفيلم لخطورة المشاكل البيئية التي تتخبط فيها الدول الافريقية.

أوضح ذلك أيضا فيلم «ليلة الحقيقة» بمشاهده المقززة التي تعمدت فيها المخرجة فانتا اظهار أعضاء آدمية مبتورة في مجاري المياه وعلى السهول نتيجة النزاعات الطائفية والعرقية.

نفس الشيء أكد عليه الفيلم الجزائري «نساء الدوار» لمخرجه محمد الشويخ الذي لفت الانتباه لخطورة الخطاب الارهابي وممارساته الدموية على قرية معزولة هجرها رجالها لتواجه النساء مصيرهن بالدفاع عن أنفسهن مستخدمات كل الوسائل بما فيها الأسلحة النارية، وقد فاز هذا الفيلم بجائزة الصقر الذهبي في مهرجان الفيلم العربي بروتردام.

3

في ظل هذا الوضع اللاانساني يجد السينمائيون أنفسهم أمام خيارين: اما الانخراط في مسلسل الانتاج السينمائي مع تزكية النظم السياسية وحكامها، أو الهجرة الى الخارج وترك المشروع السينمائي الوطني لمزاج السياسيين، وهو ما يحكم على مسار الانتاج والاشتغال بالسينما عموما بالفقر وعدم الفعالية.ولا شك أن الأنظمة الاستبدادية في القارة تفضل ممارسة الضغط على المخرجين نظرا لطابع التحريض والتوعية الذي يمكن أن تمارسه السينما.

ان ما يزيد الطين بلة هو وجود مجموعة من المعوقات أمام السينما الافريقية من ضمنها:

ـ عدم توفير آلات وتجهيزات التصوير بل اخضاعها لرسوم جمركية عالية.

ـ اغلاق القاعات.

ـ غياب بنى تحتية لتحميض الأفلام الشيء الذي يجبر المخرجين الأفارقة على التوجه الى المغرب أو فرنسا أو بلجيكا.

ـ زيادة مصاريف اضافية تثقل كاهل منتجي مثل هذه الأفلام.

ـ عدم قدرتها على منافسة الأفلام الوافدة أكانت فرنسية أو أمريكية لغياب مجال المقارنة أصلا.

ـ مشاكل التوزيع المرتبطة بالرؤية الدونية لكل ما هو إفريقي.

4

انه من باب العبث أن نصدر أحكاما على أفلام كـ«كارميل» أو «مولادي» لسمين أوسمان أو «المؤخرات السمينة» من خلال عيون نقدية تستند لمرجعيات غربية أو عربية اسلامية من دون الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات الثقافة الافريقية كثقافة ذات أصول وثنية متجذرة في التراث الشعبي الشفهي على الخصوص، وهو ما يجعل خطاب الصورة بمقوماتها الفيلمية يتميز بفتوة تجربته التي انطلقت في افريقيا السوداء مع بداية السبعينيات. لذلك نلاحظ طغيان الطابع المسرحي على جل هذه الأفلام، وبالتالي هيمنة الملفوظ على حساب المصور. ان الفيلم في هذا السياق يصبح كمسند محكوم بقوة الرسالة أو العبرة التي تسعى لتمرير حكمة أو ادانة سلوك وهو ما يبقي جل الأفلام الإفريقية رهينة اعتبارات موضوعاتية كالحب أو الحق في اختيار شريك الحياة، أو ادانة السحر أو ختان الفتيات كما تجلى ذلك من خلال فيلم «مولادي». لكن هذا لا يعني الانتقاص من قيمة بعض الأفلام التي لاقت رواجا تجاريا ، بل استطاعت أن تحصد العديد من الجوائز في القارات الثلاث كفيلم «الهوية المنشطرة».

5

بالرغم من اعجاب العديد من المتتبعين في هذه الدورة من أجانب ومغاربة بقدرات الممثل الافريقي وزميلته في أداء الأدوار بطريقة ذات عمق انساني وشحنة وجدانية، نلاحظ غنى مادة الأفلام بحكم الأشكال التعبيرية من فنون الرقص والغناء والرسم وفن الحكي، لكن بالمقابل هناك نوع من الفقر في تمثل الفيلم لمجموعة من الأدوات البصرية المرتبطة أساسا بخطاب الصورة. وهذا في رأيي شيء طبيعي نظرا لظروف العمل وقلة الامكانيات، وغياب الدعم المالي والاداري الذي من المفروض أن تقدمه حكومات الدول الافريقية للعاملين في الحقل السينمائي، ونظرا أيضا للطابع التربوي والوعظي الذي تتميز به الأفلام في غياب مشاهد متمرس على التمييز بين محتوى القصة الجميلة والأسلوب السينمائي.

* كاتب وناقد سينمائي من المغرب

لقطة من فيلم «البطل» للمخرج الانغولي زيزي غامبوا الذي فاز بالجائزة الاولى في مهرجان السينما الافريقية بمدينة خريبكة

### معرض جديد للتشكيلي المصري مجاهد العزب:

# وجوه تعكس التعدد وتتعامل مع المشاعر الإنسانية برهافة خبيرة

القاهرة ـ «القدس العربي»:

استقبل أتلييه القاهرة بقاعة راتب صديق معرض التشكيلي المصري مجاهد العزب. وقد ضم المعرض ما يربو على الثلاثين عملا معظمها «زيت على توال» وجاء المعرض ايضا محملا بالوجوه وملامحها الثرية والغنية والمتعددة، والمزدحمة ايضا بزخم الألوان على عادة مجاهد العزب، الذي يمثل نموذجا متميزا في انسيابية الفرشاة وتوزيع الألوان ومساحات الاضاءة. وقد شارك العزب في الحركة التشكيلية المصرية بعدد من المعارض الجماعية والفردية داخل مصر وخارجها منذ عام 1974.

وقد اقام في اتلييه القاهرة عددا من المعارض الفردية اعوام 96، 98، 2000، و2001، وعمل مستشارا فنيا لبعض دور النشر في الفترة من عام 1999، حتى عام ,2001 ويعمل الان مديرا عاما لدار توت للدعاية والنشر وفنون الطفل، وهو ايضا عضو اتلييه القاهرة، وعضو مؤسس في محترف الفن بجلوان وشارك في جميع معارضه بين اعوام 1975 حتى 1979. وقام ايضا بتصميم العديد من اغلفة الكتب والمجلات والرسوم الصحافية لكبار الكتاب والمبدعين وله العديد من اللوحات الجدارية ببعض الشركات والهيئات الخاصة والعديد من اللوحات مقتناة لدى الافراد داخل مصر وبعض الدول العربية واوروبا.

يقول عنه التشكيلي «مينج خوان» من تايلاند: وانت امام وجوه مجاهد العزب.. هل سألت نفسك يوما، كم عدد الذين التقيتهم في اليوم الواحد؟ كم واجهت من مشاعر؟ لو حدث ذلك لعرفت الحقيقة، حقيقة واحدة.. اغلب الناس لديهم مشاعر معقدة وبلا حدود وليست هناك استطاعة لوصف تلك المشاعر كلها.

وانت ايضا امام هذه الوجوه المتحفية تعتقد انهم سعداء مبتسمون، ضاحكون، لكن اتعرف ان ذلك قد يكون غير صحيح؟ فالسعادة لا تعني مطلقا الابتسام او الضحك، لكنك احيانا ستراهم يبتسمون بعيونهم وقلوبهم، يقدمون السعادة بعطف ورقة.

هذا ما يمكن ان تلمسه بقوة في الحياة وفي لوحات هذا الفنان الذي يسعى لتعميق الرؤية. ايضا الدموع لا تعني فقط الحزن، فقد ترى الدموع من عيون هذه الوجوه، واذا لم تستطع الفصل بينهما بسهولة انظر الى نفسك في المرآة، حاول ان تقول اي شيء. انظر لنفسك وأنت تقول شيئا حزينا، ستكون بالفعل حزينا.. كذلك لو قلت شيئا سعيدا. ستجد نفسك سعيدا ايضا. هذا وكثير منه تفعله معنا وجوه الفنان مجاهد العزب.

اما الفنان عمر جهان فيقول عن هذه الوجوه: لا يمكن قراءة الوجه او رؤيته الا بوصفه قناعا والعلاقة بين الوجه والقناع، علاقة تلازم مع ان الوجه يحزن والقناع هو الحزن، الوجه يفرح والقناع هو الفرح، الوجه يشيخ ويموت والقناع هو الموت.. والقناع كشف.. الوجه يخون ويكذب ويصدق ويرى، يموت ويحيا، أما القناع فهو الحياة والموت.. وجهي قناعي وقناعي وجهي».

اما الفنان محسن حلمي فيقول: الوجه هو القناع الذي يتخفى وراءه البشر، ولا يمكن خلع هذا القناع حتى ولو اراد صاحبه، فمن طول العشرة يتطبع البشر مع اقنعتهم، ومخطئ من يقول بأن الوجه يعبر عن صاحبه.

اما الناقدة عايدة خليل فتقول: ثمة ما يدعو للتواصل منذ رسم الانسان وجهه لاول مرة.. الاستقبال والحرارة والطاقة الكامنة تجاه الآخر، والطبيعة والحياة وخصوصية التعبير والتشكيل، الشفافية والافصاح والغموض، التبسيط والتركيب. علوم دلالية ـ اكتشفت ولم تستكشف بعد ـ من تفرد الملامح، وايثار اللب والباطن.. فهناك الكثير مما يمنحنا القدرة على الاستمرار.

اما الناقد والتشكيلي الدكتور رشيد القماش استاذ ورئيس قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالمنيا فيقول: فن البورتريه من الفنون الماسة على مدار التاريخ القديم، والمعاصر، منها الكلاسيكي النزعة والواقعي ومنها التعبيري وغيره مما ينتسب الى المدارس الفنية المتعددة.

والوجوه في معرض الفنان مجاهد العزب وفي حياتنا اليومية نواجهها، نقابلها وتقابلنا، تحادثنا، نتفاعل معها، تقدم لنا الحياة او تأخذها، ترمي بنا الى عوالم نفسية متعددة، وانسانية معقدة تأخذنا في البعد الدرامي.. ووجوه تخدعنا لتقتلنا مئات المرات!

ويضيف القماش: بين معترك الوجوه ودراميتها، تطل علينا وجوه معرض الفنان «مجاهد العزب» منبعثا من تفاصيلها، ومسطحاتها، دلالات نرى من خلالها العديد من المعاني الفردية كالامل والحزن، والفرح، والخوف والقلق، ومنها ما يكشف عن السادية التي تجذبنا معها، وتأخذنا، ثم نعود مكتوفي الايدي، مكمومي الافواه، مغمضي الاعين، ثم تأتي تلك الايماءات والنظرات، والالتفاتات الداخلية والخارجية.

من تلك الوجوه البضة المكتنزة المتكورة والمسطحة احيانا تحاورنا الاسطح اللونية الناعمة بالرغم من تلك التشوهات والتقسيمات الخطية المستقيمة والمائلة والمنكسرة والدائرية والمنحنية، الا ان ذلك الغطاء الشفاف الذي يبوح لنا بالهدف الاسمى من تلك الوجوه ذات التراكيب الخفية المعبرة عن الصمود المتواتر، ذات الالوان الساخنة الحمراء والصفراء كلون الشمس المضيئة والدرجات الداكنة والرماديات التي تأخذنا الى عالم الحيرة والخوف!

ويضيف القماش مختتما حديثه عن الفنان مجاهد العزب: ايضا ذلك المنظور الفني الشكلي الذي يجسد الوجوه من خلال كتل مكعبة وبيضاوية واسطوانية ومنشورية في مساحات وفراغات وانكسارات ونتوءات ذات صرامة حادة تلح على المعنى والتعبير الذي يؤكده الفنان من خلال ذهابه الى البعد الانساني ذي النظرة البعيدة والضوء الساقط في اعلى المساحات والفراغات.

# تداعيات

## الى روتردام..

لحسن العسبي*

■ اسمحوا لي ان أتطاول كي أحكي لكم قصة .. قصة رجل، أعتقد أنني أعرفه، اسمه ادريس الخوري: كانت السماء ملبدة في البلاد البعيدة التي ركبنا الطائرة للسفر اليها.. كان انتظارنا داخل الطائرة ساعة ونصف الساعة، قبل السماح لنا بالاقلاع، مبعث قلق في الخاطر، وعنوانا على أننا مسافرون الى جغرافية يلفظنا صقيع بردها وثلوجها، حتى ونحن لما نزل فوق تراب البلاد... وزادنا الصوت الانثوي المغناج لمضيفة الطائرة، حيرة في السؤال، حين أخبرتنا ان سبب التأخر انتظار الاذن لنا بالاقلاع من مطار أمستردام، لأن حركة الطيران كثيفة هناك، وان ثمة احتمال احتكاك في السماء... كانت الكلمة كافية كي تلتقي نظراتنا، وأن نضحك في دواخلنا، في صمت.. ولأننا دائما الاواخر في الوصول، هكذا بشكل يكاد يكون قدريا في جغرافيتنا العربية، فقد كانت طائرتنا المغربية، آخر طائرة نزلت فوق مطار أمستردام قبل اغلاقه.الحقيقة أنها تزحلقت فوق صقيع الثلج السميك... وحين عثرنا على يوسف الهولندي، بعد بحث مضن في أطراف المطار، هو الذي سيقلنا الى مدينة روتردام، قلنا ان اختيار ذلك المرافق والسائق الهولندي بالتحديد، هو المتزوج من شابة مغربية، انما فيه تقدير لكاتب قصة مغربي معنا، له عمل ابداعي اسمه يوسف في بطن أمه.. كان أول ما استقبلتنا به الحياة خارج مطار امستردام، هو درجة حرارة تصل الى 12 درجة تحت الصفر، وثلجا ينزل أبيض، هادئا من السماء، وكان ذلك، بالنسبة لنا نحن القادمين من شمس آذار (مارس) الدافئة، سببا لانقباض الخاطر.. انزوى كل الى نفسه، وكان لابد أن نهيىء لعلمنا الأدبي، ادريس، المكان الافضل في السيارة الكبيرة.. غرق في صمته، وكانت عيناه تتأملان تعطل الحياة في نواطير الهواء الممتدة على الحقول المغطاة بالثلج... وكنا في الرحلة نتلبس صورة سفراء بلد قادمين من جغرافية بعيدة عن بلاد الاراضي المنخفضة... كنا قادمين من التاريخ أيضا، أشبه برحلة وفد مغربي زار هولندا، منذ 400 عام... كنا غارقين في قاموس حياتنا المغربية، الذي تشربناه في دروب وحنايا الدار البيضاء.. وكان مكر الكلمات وشغبها خيمتنا التي نصبناها فوق ثلج البلاد.. فقد اتفقنا أننا جئنا نبحث عن بقر هولندا... أليس ذلك البقر هو الذي يسكن مخيالنا هناك، عنوان خصوبة ونقول عنه دوما انه ثامر.. فقد جئنا محملين بأحكامنا المسبقة عن بقر هولندا، عن عيونه الواسعة، عن أثدائه الخصبة الملأى بالحليب والحنان أيضا.. كان الفضاء، غارقا في لون رمادي داكن، حتى والساعة لم تتجاوز الزوال الا بقليل، فقلنا لبعضنا أين البقر الذي جئنا من أجله؟!، أين أزهار ورود البلاد المشهورة؟ بل أين هي روتردام التي قال لنا يوسف الهولندي، النية ، اننا دخلناها آمنين؟!... كان هناك الثلج، ثم الثلج لاغير... وكان الرماد يأخذنا الى رماد أكثر ظلاما وأكثر كثافة... وقلنا أين هي الحياة في هذه البلاد؟!... أين هو الجمال الذي جئنا نبحث عنه؟! الجمال الذي حدثنا عنه أجدادنا منذ قرون؟!..

أين البقر؟! فجأة، أمرنا يوسف ان ننزل الى بوابة فندق أوستين الفخم جدا، العالي، بقلب ساحة امستردام، التي تعتبر قلب روتردام... وبعد ان فركنا أعيننا جيدا، اكتشفنا أننا قبالة محطة القطار الرئيسية، وأن شبكة هائلة من التراموای تلتف حول تلك الساحة.. بدأنا نكتشف هندسة الفضاء، وبدأ الجمال ينتال أمام أعيننا... لكن، ما الذي يمكنك فعله، أمام أنهر متجمدة.. مع توالي الاكتشاف، انتبهنا لبعضنا البعض.. انتبهنا أكثر لخصوصية كل واحد منا.. فولدت تواطؤات... واكتشفنا ان بعض مرافقينا متجهمون وجديون بشكل يخرجك عن صوابك... وأن بعضنا كل مشاكل الحياة عنده هي مع آلة وكان سوء طالعه أنه وقع تحت لسان كاتب قصة اسمه ادريس الخوري، فكان قصتنا في روتردام... كان أحدبنا في تلك المدينة... نقطع به برد المسافات، ونستظل بحكاياته من ثلج الطريق... ثم خلسة، انتبهنا أن روبي (احدى مرافقتينا الهولنديتين)، تهيم بقامة با ادريس، وكانت تسحبه عنا رويدا رويدا... فاشتعلت غيرتنا أنا والصديق، الهادىء والوقور، الطيب حديقة... كنا نراهما، من خلل ندف الثلج يتواصلان، هو بفطنة درب غلف، وهي برطانتها الهولندية... سيخبرنا ادريس، أنها طالبة، أن لها صديقا، انها تقطع يوميا عشرات الكيلومترات كي تسهر على راحته.. بأي لغة تواصلتما أبا دريس؟!... بلغة القلب.. بعد أسبوع، لم نكتشف لا بقر هولندا، ولا حليب خصوبتها.. اكتشفنا شيئا أهم، هو أننا أصدقاء بصيغة نافذة في الطراوة الانسانية...

اكتشفنا ان ما جئنا نبحث عنه هو فينا: الانسان.. ذلك الشيء الذي يتشابك فيه الأمل، الصدق، الخوف، الملل، (القوالب)، الصفاء، الذكاء ، الدهاء، الفرح وأغنية فين غادي بياخويا، فين غادي بيا التي غناها لنا بادريس، ونحن في طريق المطـــار للعودة الى تراب البلاد، حيث لا نلتـــقي الا نادرا... ثم لماذا علينا أن نلتقي؟! ليس شرطا.. فرحلتنا الهولـندية، جعلتنا نكتشف أننا نلتقي دوما.. نلتقي اختيار حياة، صدقها، صفاءها وطفولتها التي بلا ضفاف.

* كاتب من المغرب

# قـص

# ما تبقى من ظفار

محمد الشحري*

■ أمرنا المدير بإتلاف الرسائل المُرجّعة، التي لم تُستلم، ولا يوجد لمرسلها عنوان، و مرّت عليها مدة تتجاوز عشر سنين، فلم تنطبق الشروط إلا على رسالة وحيدة بقيت على الرّف وتغير لون ظرفها بفعل رطوبة المكتب والأتربة، كانت الرسالة معنونة إلى (آنا ميخائيلوف، سيبيريا شارع ستالين بناية رقم 1917، الإتحاد السوفييتي) فتحت الرسالة لكونها الرسالة الوحيدة التي بُعِثت إلى هناك، وقرأت مضمونها:

« ..... آنا، أنا بعدك لا أرى النور، ولا يعرف الفرح إليّ طريقاً. آنا أنا بعدك جثة هامدة على ساقين، تقلبها الأيام، لم أجد تعبيرا أفضل من هذا، وأدرك مدى الأسى والحزن اللذين سببتهما لك، ولكن بعثت هذه الرسالة علّها تشفع لي عندك، وَعدت نفسي بالرجوع إليك، ولكن سقط الجدار وسقط معه أملي بالرجوع، وأظن أنك تدركين مدى المعاناة التي عشتها بعد انقطاع المنَحة عني، وبقائي في ذلك البرد القارص والجوع، وسكن الطلبة البائس والحميم أيضا، بعد أن وصلتني رسالة من سفارة بلدي، والمتضمنة دعوتي للحصول على تذكرة وأوراق رسمية أعبر بها الحدود إلى عُمان، التي لم أحصل آنذاك على جنسيتها بعد، بل مواطن بالوراثة، فقط لأن والديّ من هناك، وأقسم لك بشرف الرفاق المخلصين أنني على الرغم من تلك المعاناة في سكن الطلبة، إلا أني على أمل العودة إليك، ولكن اليأس غلب الأمل، وتحولت لبقايا رجل منهزم، تغيرت المبادئ، شعرت بالضعف والخوف من الموت، تزوجت وأنجبت سلاسل من العبودية قيدتني، وليس هذا فحسب بل أصبح لي مبلغ من المال لا أنام إلا بعد عدّه، وأمارس شعائر شبيه بتلك التي تمارسها جدتك في الكنسية أيام الآحاد قبل مجيء البلاشفة، لم أعد ذلك الذي تقولين له أنت لا ترتوي ولا تكف عن العناق، نعم انطفأت حرارة الصحراء، حين كنا في غرفتك أوهمتك إني ذاهب إلى أوكرانيا لأزور أصدقائي، وكنت أبكي وأنت تمسحين دموعي بلسانك وتقولين: لماذا تبكي وسترجع؟!

بكيت لأني كذبت عليك، هل تعلمين أن كل آلامي تدفقت في تلك اللحظة ؟!

حتى عندما فارقت أمي ورأيتها تبكي، وعمري آنذاك لم يتجاوز العاشرة لم تنزل لي دمعة، بل كنت أضحك في أعماقي لأني سأتخلص من الرعي ومن جدي الذي يستظل بشجرة التين ويحثنا على النهب والسلب وقطع أرجل المواشي، وإلا فلن نكون أقوياء ذوي بأس شديد، فتكافئه الطيور فوق الشجرة بإسقاط برازها السائل على جبينه، وأحيانا يزوره زائر يدّعي أنه من أحفاد الرسول، ويهمس في أذنيّ جدي قائلا: زوجني بنتك وسأضمن لعشرة من أهلك الجنة،لكن عمتي تهدده بأنها لو تزوجها ذلك العجوز القذر فإنها ستنضم للثورة وستلبس (الشورت) وتحمل (السيمنوف) فيتراجع جدي عن قراره.

فارقت ظفار في ليلة ربيعية مقمرة صحبة الرفاق،كانت المسافة طويلة والرحلة إلى شرق عدن متعبة قطعناها سيراً، يحملني الرفاق أحيانا، وأتقدمهم بحماس طفولي أحيانا أخرى، أنظر بإعجاب «للكلاشنكوف» وهي تلمع على كتف هذا الرفيق أو ذاك، حين تصل الشمس للأفق يمتد ظلي مع ظلالهم فيتساوون في الطول، لذا كنت أنتظر المغيب، ينشد الرفاق أغانيهم (هبي يا ثورة يا شعوب يا حرة، هيا يا ثورة، ثورة على الطغيان) أو (جيشنا ثوري مقاتل لن يلين، لن يلين ولن يهاب المعتدين) لم أكن أعرف معنى الكلمات، ولكن اللحن يلهب الحماس، تلك أيام خلت يا آنا، «يقول لي الرفاق: تعلّم لتُعلّم الناس فيما بعد، وإذا تفوّقت على أقرانك ربما تصبح طبيبا يعالج الناس».

يهيمن على رؤوس الظفاريين آنذاك، المرض والخوف والجوع، بعد أن أنهي دروسي الصباحية، أذهب لرؤية الأطباء الكوبيين وهم يعالجون المرضى في المعسكر الذي أقامته الجبهة في منطقة (حوف)، في أوقات راحتهم يعدّون فطورهم بأيديهم أو يخيطون ملابسهم المرقعة، أنهيت دراستي هناك ولم تجد العلوم أصداء في نفسي لذلك جئتكم لدراسة الآداب، تلك السنوات ـ يا آنا ـ لم تلبث في ذاكرتي سوى ومضات برق خاطفة، واستحوذت على ذاكرتي عيناك الزرقاوان وشفتاك اللتان لا يفارقهما الاحمرار،يا معلمتي التي علمتني ما لا يُعلم في المدارس، أخشى عليك بعد هذا العمر أن يتحول لون حلمتيك للسواد كضرع شاة عقيمة، آنا أمازلت تضعين النجمة الحمراء على صَدرك النافر؟، أمازلت تقرئين رأس المال، وتناقشينه في قاعات (باتريك لومومبا)؟، أم غدرك الزمان وأودعت ذلك في متحف النسيان ونفضت يديك من القضيةَ،وجلست أمام التلفاز تتابعين أفلام هوليوود، وعلى رأسك قبعة بيسبول مائلة للخلف، أم أنك هاجرت إلى دبي أو تل أبيب، وأصبحت عارضة بدن هناك.

حين حطّت بي الطائرة في مسقط كنت خائفا مرعوبا مما يخبئه المجهول، نزلت بملابس رثة لم تكن خالية من إيواء البراغيث، ودون حقائب، استقبلني اثنان بملابس مدنية أحدهما متوسط القامة يضع نظارة سوداء على عينيه والآخر أقصر منه بقليل ببطن بارز وأذنين طويلتين ويداه مغطتان بالشعر، رحبا بي وحمدا الله على سلامتي ورجوعي للوطن، ورافقاني إلى مكان غير الذي سلكه المسافرون، دخلنا إلى غرفة واسعة مكيّفة مرتبة بعناية، في الغرفة سرير ودورة مياه،وثلاجة صغيرة وطاولة وثلاثة كراس، على الطاولة قلم ورزمة أوراق، قال لي ذو النظارة السوداء : بعد أن تفيق من النوم، أكتب كل ما تعرفه من أول يوم خرجت فيه من ظفار حتى هذه اللحظة، وفي الثلاجة كل ما تحتاج إليه، أفقت من نوم عميق، بعد رحلة من كيف وصوفيا ودمشق والمنامة، وأنا أنهي الكتابة حضرا إليّ صاحباي اللذان استقبلاني، وأمطراني بالأسئلة، ماذا تعلمت في اليمن الجنوبي وعند الروس؟ هل تعرف أبا كفاح؟ من المسؤول عنكم؟ ما طبيعة نشاطك؟هل كنت تتحدث في الإذاعة آنذاك؟ وما هي صفات المناضل الثوري ؟ومن كان يزودكم بالأسلحة؟

وأنا أرد قائلا: لم أكن إلا مجرد طالب لا يفارقه الكتاب، لم أحمل يوما بندقية،ولم ألقِ خطبة في حياتي ولم يكن لي أي نشاط سياسي.

قال أحدهما: أين أصبت بهذا الجرح على معصمك؟

أجبت: كنت أتزلج في موسكو.

ابتسم وقال: «لماذا تخبئ علينا نحن نعرف أنك أصبت به في معسكر حوف، وعالجك (خوان فرناندو) في مستشفى العاشر من حزيران (يونيو) في الغرفة 22 على السرير7، وكنت في فرقة هوشومنه، وعلى الرغم من صغر سنك كنت مع الوفد الذي ذهب إلى الجزائر.

لا أطيل عليك أمضيت أسبوعا كاملا في تلك الغرفة، أسئلة وأجوبة، بعدها أعطوني مبلغا من المال، عدت فوجدت الحياة في ظفار مختلفة عن البارحة، الناس يلبسون الساعات ويتعلمون، وانسحب الجنود الإيرانيون وتبعهم الأردنيون، تغير عليّ كل شيء، لم أعرف إلا أمي من شامة على خدها، ووجدت إخوتي على أبواب الهرم، بعدها بثلاثة أشهر حصلت على وظيفة في مصلحة حكومية، أعيش على هذه الرتابة، لا غد أنتظره ولا يوم استمتع به، آنا سأظل متعلقا بك إلى أن تتوقف الأرحام عن الدفع، ويرّم الدهر أبداننا، وتبلع الأرض هذه الأرصفة ومن عليها.....».

الرفيق ظفار أبو ثائر

* كاتب من سلطنة عمُان يقيم في تونس